

في تفسير سورة الحجرات: «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا»

الشك المطلق في جميع المصادر والأخبار مخالف لأصل الثقة بين الجماعة المؤمنة

وسياتي قوله تعالى: (بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) فنفضل القول إن شاء الله في هذه المنة. والذي يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذي أراد بهم هذا الخير، وهو الذي خلص قلوبهم من ذلك الشر: الكفر والفسوق والعصيان. وهو الذي جعلهم بهذا راشدين فضلا منه ونعمة. وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة. وفي تقرير هذه الحقيقة إيهام لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتبديره، والاطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة، وترك الاقتراح والاستعجال والاندفاع فيما قد يظنونه خيرا لهم، قبل أن يختار لهم الله.

قاله يختار لهم الخير، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، يأخذ بيدهم إلى هذا الخير. وهذا هو التوجيه المقصود في التعقيب. وإن الإنسان ليعجل، وهو لا يدري ما وراء خطوته. وإن الإنسان ليقترح لنفسه ولغيره، وهو لا يعرف ما الخير وما الشر فيما يقترح. (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا). ولو استسلم لله، ودخل في السلم كافة، ورضي اختيار الله له، واطمأن إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره، وأرحم له وأعود عليه بالخير. لا ستراح وسكن. ولا مضى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب في طمانينة ورضى. ولكن هذا كذلك من الله وفضل يعطيه من يشاء.

يدي الله ورسوله، ولكنه يزيد هذا التوجيه أيضا بقوة، وهو يخبرهم أن تدبير رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بوحى الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر. وأنه لو أطاعهم فيما يعن لهم أنه خير لعنتوا وشق عليهم الأمر. قاله أعرف منهم بما هو خير لهم، ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار: (لو يعطيكم في كثير من الأمر لعنتم).

وفي هذا إيهام لهم بأن يتروكوا أمرهم لله ورسوله، وأن يدخلوا في السلم كافة، ويستسلموا لقرار الله وتبديره، ويتلقوا عنه ولا يقترحوا عليه.

نعمة الاختيار

ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذي هداهم إليه، وحرك قلوبهم لحبه، وكشف لهم عن جماله وفضله، وعلق أرواحهم به، وكره إليهم الكفر والفسوق والمعصية، وكان هذا كله من رحمته وفيضه: (ولكن الله يحب اليك الإيمان وزينه في قلوبكم، وكره اليك الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون. فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم). واختيار الله للفريق من عباده، ليشرح صدورهم للإيمان، ويحرك قلوبهم إليه، ويزينه لهم فهتفو إليه أرواحهم، وتذكر ما فيه من جمال وخير. هذا الاختيار فضل من الله ونعمة، دونها كل فضل وكل نعمة. حتى نعمة الوجود والحياة أصلا، تبدو في حقيقتها أقل من نعمة الإيمان وأدنى!



أحدهم الفعلة ويقول أحدهم القولة، ويسر أحدهم الخالجة، فإذا السماء طلعت، وإذا الله - جل جلاله - نبئ رسولهم بما وقع، ويوجهه ما يفعل وما يقول في هذا الذي وقع.. إنه لأمر. وإنه لنبيا عظيم. وإنها لحقيقة هائلة. قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه. ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بالأرض صلة دائمة حية مشهودة، فتقول السماء للارض، وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم. وفعل

بالحقيقة الضخمة والنعمة الكبيرة التي تعيش بينهم ليدركوا قيمتها وينتبهوا دائما لوجودها: (واعلموا أن فيكم رسول الله). وهي حقيقة تتصور بسهولة لأنها وقعت ووجدت. ولكنها عند التدبر وتبدو هائلة لا تكاد تتصور! وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة، فتقول السماء للارض، وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم. وفعل

يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحواسر فقط يتضمن مبدأ التخصيص والتثبث من خبر الفاسق، فأما الصالح فيؤخذ بخبره، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، وخبر الفاسق استثناء. والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبث لأنه أمد مصادر. أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي أصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومعلل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة. والإسلام

الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة. والله أعلم. ومدلول الآية عام، وهو يتضمن مبدأ التخصيص والتثبث من خبر الفاسق، فأما الصالح فيؤخذ بخبره، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، وخبر الفاسق استثناء. والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبث لأنه أمد مصادر. أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي أصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومعلل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة. والإسلام

«يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فإن تصيبوا قوما بجهالة نادمين. واعلموا أن فيكم رسول الله، لو يطعكم جهالة وتسرع، فتندم على أن تكابها ما يغضب الله، ويجانب الحق والعدل في انذفاع. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات بني المصطلق، وقال ابن كثير. قال مجاهد وقادة: أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم ففتلقوه بالصدقة، فرجع فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتك - زاد ومن تقرير مكان القيادة وتصبح لتتبعها، وتتبعها للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها وطاعتها. ومن ثم جاء هذا النداء الثالث بين المؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها، ويقرر ضرورة التثبث من مصدرها: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا، أن تصيبوا قوما بجهالة، فتصحبوا على ما فعلتم نادمين».

وبخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب، وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشك في معلوماتها. فالأنصاف في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقة، وأن تكون أنباؤهم صادقة ماخوذا بها. فاما الفاسق فهو موضع الشك، وبذلك يستقيم أمر الجماعة

العمل الصالح وأمارات قبوله

أصابه لم يكن ليخطئه، وبالجملة يرضى بالله وبقضائه وبحسن الظن بربه.

تذكر الآخرة

ومن علامات القبول نظر القلب إلى الآخرة، وتذكر موقفه بين يدي الله تعالى وسؤاله إياه عما قدم فيخاف نفسه على الصغيرة والكبيرة، ولقد سأل الفضيل بن عياض رجلا يوما وقال له: كم مضى من عمرك قال: ستون سنة، قال: سبحان الله منذ ستين سنة وأنت في طريقك إلى الله! فربت أن فاعد وإعلم أنك مسؤول فاعد للسؤال جوابا، فقال الرجل: وماذا أصنع، قال: أحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى وإن أسأت فيما بقي أخذت بما بقي وبما مضى.

إخلاص العمل لله

ومن علامات القبول أن يخلص العبد أعماله لله فلا يجعل للخلق فيها نصيبا، لأن الخلق تراب فوق تراب- قيل لأحد الصالحين- هيا نشهد جنازة فقال: أصبر حتى أرى نيتي، فليظفر الإنسان منا نيته وقصده وماذا يريد من العمل، وقد وعظ رجل أمام الحسن البصري فقال له: الحسن يا هذا لم أستد من موعظتك، فقد يكون مرض قلبي وقد يكون لعدم إخلاصك.

قال الحسن: «يا ابن آدم إن لم تكن في زيادة فانت في نقصان».

الثبات على الطاعة

وللثبات على الطاعة ثمرة عظيمة كما قال ابن كثير الدمشقي- حيث قال رحمه الله: «لقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه يوم القيامة» فمن عاش على الطاعة يابى كرم الله أن يموت على المعصية، وفي الحديث: «بينما رجل يحج مع النبي صلى الله عليه وسلم فوكرته الناقة فمات فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كفوهه بنؤبيه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا».

وقال عن الرجل الذي سرق من الغنمية إن الشملة التي سرقها لتشتعل عليها ناراً.

طهارة القلب

ومن علامات القبول أن يتخلص القلب من أمراضه وأدوائه فيعود إلى حب الله تعالى وتقديم مرضاته على مرضاة غيره- وإيثار أوامره على أوامر من سواه، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يترك الحسد والبغضاء والكراهية، وأن يوقن أن الأمور كلها بيد الله تعالى فيطمئن ويرضى، ويوقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما

إن المسلم يعمل العمل راجيا من الله القبول، وإذا قبل الله عمل الإنسان فهذا دليل أن العمل وقع صحيحا على الوجه الذي يحب الله تبارك وتعالى، قال الفضيل بن عياض: «إن الله لا يقبل من العمل إلا أخلصه وأصوبه، فأخلصه ما كان خالصا، وأصوبه ما كان على السنة» وذكر الله تبارك وتعالى أنه لا يقبل العمل إلا من الحقين: «إنما يتقبل الله من المتقين» فكيف يعرف الإنسان أن عمله قد قبل وأن الجهد الذي قام به أتى ثمرته؟ ذكر علماءنا أن للقبول أمارات، فإذا تحققت فعلى العبد أن يستبشر، والتي منها:

عدم الرجوع إلى الذنب

إذا كره العبد الذنوب وكره أن يعود إليها فليعلم أنه مقبول، وإذا تذكر الذنب حزن وندم وانعصر قلبه من الحسرة فقد قبلت توبته، يقول ابن القيم في مدارج السالكين: «أما إذا تذكر الذنب ففرح وتلذذ فلم يقبل ولو مكث على ذلك أربعين سنة» قال يحيى بن معاذ: «من استغفر بلسانه وقلبه على المعصية معقود وعزمه أن يرجع إلى المعصية ويعود، فصومه عليه مردود، وباب القبول في وجهه مسدود».

زيادة الطاعة

ومن علامات القبول زيادة الطاعة: قال الحسن البصري: «إن من جزاء الحسنة السيئة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة» فإذا قبل الله العبد فإنه يوقفه إلى الطاعة، ويصرفه عن المعصية، وقد

السواك مطهرة للفم مرضاة للرب



المبالغ في قصه، لما في ذلك من التجميل والنظافة ومخالفة الكفار. وقد وردت الأحاديث في الحث على قصه وإفائه وإعفاء اللحية وإرسالها وإكرامها، لما في بقاء اللحية من الجمال ومظهر الرجولة، وقد عكس كثير من الناس الأمر، فصاروا يوفرون شواربهم ويحلقون لحاهم أو يقصونها أو يحاصرونها في نطاق ضيق، إمعانا في المخالفة للهدي النبوي، وتقليدا لأعداء الله ورسوله، ونزولا عن سمات الرجولة والشهامة إلى سمات النساء والسفلة، حتى صدق عليهم قول الشاعر:

يقتضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وقول الآخر:

ولا عجب أن النساء ترحلت ولكن تأتيت الرجال عجيب

عليها، واستحبها لهم، ليكونوا على أكمل الصفات وأشرفها، وليكونوا على أجمل هيئة وأحسن خلقة، وهي السنة القديمة التي اختارها الأنبياء واتفقت عليها الشرائع، وهذه الخصال هي:

1 - الاستحدا: وهو حلق العانة، وهي الشعر النابت حول الفرج، سمي استحدا، لاستعمال الحديد فيه، وهي الموسى، وفي إزالته تجميل ونظافة، فيزيله بما شاء من حلق أو غيره.

2 - الختان: وهو إزالة الجلدة التي تغطي الحشفة حتى تبرز الحشفة، ويكون زمن الصغر، لأنه أسرع برأ، وليتسا الصغير على أكمل الأحوال. ومن الحكمة في الختان تطهير الذكر من النجاسة المنحذرة في القلفة وغير ذلك من الفوائد.

3 - قص الشارب وإفائه وهو

الليل أو نوم النهار، لأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل، يشوص فاه بالسواك، والشوص: الدلك، وذلك لأن النوم تتغير معه رائحة الفم، لتساعد أبخرة المعدة، والسواك في هذه الحالة ينظف الفم من آثارها، ويتأكد السواك أيضا عند تغير رائحة الفم بأكل أو غيره، ويتأكد أيضا عند قراءة قرآن، لتنظيف الفم وتطيبه لتلاوة كلام الله عز وجل.

وصفة التسوك أن يمر المسواك على لثته وأسنانه، فيبتدئ من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر، ويمسك المسواك بيده اليسرى. ومن الزايب التي جاء بها ديننا الحنيف خصال الفطرة التي مر ذكرها في الحديث، وسميت خصال الفطرة، لأن فاعلها يتصف بالفطرة التي فطر الله عليها العباد، وحثهم

روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: السواك مطهرة للفم مرضاة للرب رواه أحمد وغيره. وثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خمس من الفطرة: الاستحدا، والختان، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر. وفي «الصحيحين» أيضا عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا: أحقوا الشوارب وأعقوا اللحي من هذه الأحاديث وما جاء بمعناها أخذ الفقهاء الأحكام التالية:

مشروعية السواك، وهو استعمال عود أو نحوه في الأسنان واللثة، ليذهب ما علق بهما من صفرة ورائحة. وقد ورد أنه من سنن المرسلين، فأول من استاك إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أنه مطهرة للفم، أي: متخلفة له مما يستكره، وأنه مرضاة للرب، أي: يرضى الرب تبارك وتعالى، وقد ورد في بيانه والبحث عليه أكثر من مائة حديث، مما يدل على أنه سنة مؤكدة، حث الشارع عليه، ورغب فيه، وله فوائد عظيمة، من أعظمها وأجمعا ما أشار إليه في هذا الحديث: أنه مطهرة للفم مرضاة للرب. ويكون التسوك بعود لين من أراك أو زيتون أو عرجون أو غيرها مما لا يتقن ولا يجرح الفم.

ويسن السواك في جميع الأوقات، حتى للصائم في جميع الأيام، على الصحيح، ويتأكد في أوقات مخصوصة، فيتأكد عند الوضوء، لقوله صلى الله عليه وسلم: لولا أن أشق على أمتي، لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء فالحديث يدل على تأكد استحباب السواك عند الوضوء ويكون ذلك حال المضمضة، لأن ذلك أنبغ في الإنقاء وتنظيف الفم، ويتأكد السواك أيضا عند الصلاة فرضا أو نقلا، لأننا مأمورون عند التقرب إلى الله أن نكون في حال كمال ونظافة، وإظهارا لشرف العبادة، ويتأكد السواك أيضا عند الابتداء من نوم